روضة الحكايات!!

(١٥)

...ودفنَ في مدينة (تَبْريز)!!

الدكتور

محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في جناح كتب التفسير!!

(نورا) طالبةٌ من طالباتِ الثانويةِ الشرعيةِ ، وذاتَ يومٍ عادتْ إلىٰ البيتِ ، ولمّا جلستْ علىٰ الكرسيّ.. أخذتْها سِنَةٌ من النوم...

بعد قليلٍ دخلتْ أمّها إلىٰ غرفتِها ، ولما رأَتْها في تلك الوَضْعيّة.. اقتربتْ منها... وأيقظتْها.. ثم قالتْ لها : قومي يا بنيّةُ إلىٰ سريرِك.. فخُذي قسْطاً من الراحة... فالجسمُ إذا تَعِبَ... والفكرُ إذا انشغلَ كثيراً.. فما علىٰ الإنسان إلا أن يتوقّفَ عن بذل الجهدِ... ويَخْلُدَ ـ ولو قليلاً ـ إلىٰ الراحةِ والنوم...

فقالت (نورا) : لستُ متعبةً كثيراً ، ولكني مشغولةُ البالِ ، مشغولةُ البال!!... ردّدتْ الأم

ذلك... ثم قالت لها : وما الذي يَشْغَلُ بالَكِ يا بنتي ؟

أجابتْ (نورا) : إنّ مدرّسة مادةِ التفسير طلبتْ من كل واحدةٍ منّا أن تَعودَ إلىٰ أمّهاتِ التفسير ، فتَقرأَ منها ما كُتِبَ في تفسير بعضِ الآيات... وحدّدتْ لكل واحدة عشرين آيةً من كتابِ الله تعالىٰ ، وأنا قد حدَّدَتْ لي أواخرَ سورةِ آل عمران...

فسألتْها الأم : وما المشكلةُ التي تُواجِهُكِ الآن ؟

هزّتْ (نورا) رأسها وقالت : لا بد من الذهابِ ـ ولعدّة أيامٍ ـ إلىٰ المكتبةِ العامة ، فقد قالتْ لنا المدرّسة : إنّ غالبية مراجِعِ التفسيرِ في مكتبةِ الأسد ، وفي القاعة الأولىٰ حَصْراً .

و... في السَّهْرَة ، اجتمعَ أفرادُ العائلةِ... وراحَ

الصّغارُ يلعبون حولَ أبيهم ، بينما كانت الأمُّ تُعِدّ بعضَ أنواع الحلويات التي تُصنعُ في بلادِ الشام .

وبعدَ قليل ، دخلتِ الأم إلىٰ الصالون وبيَدِها طَبَقُ الحلويات... ولما وضعتْه علىٰ الطاولةِ... ورفعتْ عنه الغِطاءَ... قَفَزَ (عدنان) إلىٰ قرب الطاولةِ وصَعِدَ علىٰ الكرسي... وأراد أن يَمُدَّ يدَه... ليتناولَ من طبق الحلوياتِ شيئاً ما ، فنظرتْ إليه الأمُّ وقالتْ : لا يا بنيّ... فمن الآدابِ ألا يأكلَ الصغيرُ وحدَه ، وعلىٰ جميعِ أفرادِ العائلةِ ألا يبدؤوا بالطعامِ... حتىٰ يقولوا جميعاً : بسمِ اللهِ الرحمن الرحيم... ويدعوا الله سبحانه وتعالىٰ أن يكونَ ذلك الطعامُ حلالاً ومباركاً... ، ومن الآدابِ أيضاً : أن يبدأَ الكبارُ أولاً وخاصة الأب والأم بتناولِ الطعام... ، ومن الآداب أيضاً : أنْ نأكلَ باليدِ اليمنىٰ ، و...

ابتسمَ الأبُ... ونظرَ في عيونِ الصِّغارِ ، ثم قال

لزوجتهِ : لقد نَفِدَ صَبْرُ الأولاد... وصَبْرُنا... هيا فلنسمِّ اللهَ... ولنأكلْ علىٰ بركةِ الله .

وأَخَـذَ سكّينـةً... وقطـعَ الحلـويـات... وتَـمَّ التوزيعُ علىٰ ما يرام...

وبعدَ قليل التفتتِ الأمُّ إلىٰ ابنتِها (نورا) فوجدتْها لا تأكلُ من قِطعةِ الحلويات التي أمامَها... وآثارُ التفكيرِ والشرودِ باديةٌ عليها... فسألتْها : وما لكِ يا بنتي ، هل عُدتِ إلىٰ مسألةِ حَلْقةِ البحثِ لمادةِ التفسير ؟

ثم تابعتِ القولَ : ها هو أخوكِ (فاروق) يستطيعُ مساعدتَكِ ، وخاصةً أنه يحمل شهادةً عليا في علوم الشريعة .

... وضحكتْ (نورا) ووضعتْ يدَها على رأسها ، وقالتْ : حقاً لقد نسيتُ أنَّ أخي مختصٌّ بذلك . وحملتْ (نورا) كرسيَّها... وجلستْ إلىٰ

جِـوارِ أخيهـا.. ثـم حـدّثتْـه عـن حلْقـةِ البحـثِ المطلوبة ، وقالت له : والمشكلة أنه لم يَبْقَ علىٰ تسليمِها إلا ثلاثةُ أيام .

فَطَمْأَنَها (فاروق) وقال لها :

هذه المسألةُ في غاية البساطةِ ، وغداً ـ إن شاءَ الله ـ وقُبيلَ الظهرِ سأتوجَّهُ معك إلىٰ المكتبةِ العامةِ... ، آه يا أختي... أيامٌ رائعةٌ قضيناها بين الكتب والمجلّدات... وليتَها تعود!

وفي اليوم الثاني توجَّهتْ (نورا) مع أخيها (فاروق) إلىٰ المكتبة ، ولما دخَلا إلىٰ القاعةِ الأولىٰ... سَلَّمَ (فاروق) علىٰ أُمَناءِ القاعةِ سلاماً حـارّاً ، وراح الأستـاذُ (عبـد الـرحمـن) يسـأل (فاروق) عن آخرِ أخبارِهِ... وعن عَمَلِهِ... وعن أولاده..و..و...

بينمـا كـانـت (نـورا) تقـفُ أمـام مجلّـداتِ

التفاسيرِ... تَنْظُرُ.. ثم تقرأُ عناوينَها فقط... وهي في حالة ذهولٍ.. ثم قالت لأخيها : ما هذا الكمُّ الهائلُ من المجلّدات ؟ انظر.. هذا تفسيرٌ يزيد عن (٢٥) مجلداً ، فمتىٰ كتبه مؤلّفه.. وكم سنةً استغرق معه... ؟!

هزّ (فاروق) رأسَه.. ثم قال : لقد تَعِبَ الأجدادُ كثيراً ، وضَحَّوا بالغالي والنفيس ، وذلك في سبيل العلمِ ، وقد بارَكَ اللهُ لهم في أعمارهم وأوقاتِهِم... ، ولا عَجَبَ في ذلك فقد كان الواحدُ منهم يعيشُ قرابةَ الخمسين مثلاً ، وتجدُ أن إنتاجَه العلميَّ قد بلَغَ الكثيرَ الكثيرَ ، بينما نحن في هذا الزمانِ... فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله!!

واختار (فاروق) تفسيرَين مُخْتَصَرَين من تفسيراتِ القرآن الكريم ، أحدُهما تحتَ عنوان : (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وهو من تصنيف

القاضي البيضاوي ، والثاني تحت عنوان (معالم التنزيل) للبغَوي .

ثم قال لأخته : هيّا فهذان من أكثر التفاسير اختصاراً... ، ويُمكنُكِ تصويرُ بعضِ الصفحاتِ منهما.. أو يمكنكِ أن تَنقُلي منها... فالخيارُ لك...

... وجلستْ (نورا) وراءَ الطاولة... وراحَتْ تَنْقُلُ... وتُقارِنُ بين التفسيرين بينما كان أخوها (فاروق) يقرأُ في إحدىٰ الموسوعات الفقهيةِ...

وبعد ثلاث ساعاتٍ كانت (نورا) قد استكملتْ مسوَّدةَ حَلقَةِ البحثِ... فأشارت علىٰ أخيها بالذهابِ إلىٰ البيتِ ، فنظر إليها بدهشةٍ ثم سأَلها : ولماذا لا تَسْتكمِلين العملَ في كتابةِ الحلقة ؟

فابتسمت ثم قالتْ : لقد أكملتُها يا أخي... ولم يَبْقَ عليَّ إلا تَرتيبُها وتَهذيبُها ، وهذا أمرٌ سأقومُ به في البيتِ إنْ شاءَ الله تعالى...

... وفي الطريقِ راحتْ (نورا) تُحدِّثُ أخاها عن أسلوبِ (القاضي البيضاوي) وعن جهودهِ و... ، ثم سألته : لماذا لا تُقدّمُ نُبْذَةً عن حياةِ البيضاوي ، وذلك ضمن المحاضرات التي تُقامُ في المَعْهَدِ ، فتستفيدَ أنت وتُفيد الآخرين ؟!

... وأُعْجِبَ (فاروق) بالفكرةِ ، وتمّتِ الموافقةُ... وحُدّدَ الوقتُ لإلقاء محاضرتِه وكان هذا الملخّص المفيدُ الذي ألقاه محاضرةً في المعهد...

* * *

في رِحابِ تصانيف (البيضاوي)

ومما قاله (فاروق) في محاضرتهِ :

أيها الأحبّةُ!

لم يَكْتفِ (القاضي البيضاويّ) بكتابة تفسيرٍ موجزٍ للقرآن الكريم ، وإنما كان له باعٌ طويلٌ في علوم أخرىٰ .

ففي مجالاتِ الفقهِ الشافعيّ قام (البيضاوي) باختصارِ كتابِ (الوسيط) للغزاليّ وذلك تحتَ عنوان (الغاية القصوىٰ في درايةِ الفتوىٰ) ، وسببُ انتشارِه الكبيرِ بين الناس أنه يبيّن الأحكامَ مع أدلّتها ، مع ما تَمَيَّز به من ترتيبٍ وأسلوبٍ شيّق .

وفي مجالات علمِ الأصولِ صَنَّفَ (البيضاوي) عِدّةَ مصنفات ، أهمّها : (منهاج الوصول في معرفة علم الأصول) .

وفي مجالاتِ علمِ أصولِ الدين وَضَعَ بعض المصنفّات ، لكن أهمّها في ذلك كتابهُ (طوالع الأنوار) .

وفي رحابِ علومِ التاريخِ ، كتبَ (البيضاوي) تاريخَ العالَم ، وذلك ابتداءً من عهد آدمَ عليه السلام ، وحتىٰ سنةِ وفاته ، أي حتىٰ سنة (٦٨٥هـ) ، وأطْلَقَ عليه تسميةَ (نظام التاريخ) ، وهو باللغة الفارسية .

وفي مجالاتِ علم الحديثِ شَرَحَ كتابَ البغوي (مصابيح السنّة) وذلك تحت عنوان (تحفة الأبرار في شرح مصابيح السنّة) .

وحتىٰ في مجالاتِ علم النحو ، فقد شاركَ في

تَدريسهِ... بل صَنَّفَ كتباً فيه ، منها كتابه : (لبُّ الألبابِ في علم الإعراب) ذكر فيه غرائبَ النحو و...

* * *

بطاقته الشخصية

تابع الأستاذ (فاروق) حكايتَه قائلاً :

ولم يكن (البيضاوي) متفرِّغاً للكتابةِ فقط ، بل كانت مهمتهُ الرئيسيةُ هي القضاء!! فقد عُيّن قاضِياً لشيرازَ والبيضاء وتبريزِ وغيرها...

ولما عُرف عنه من نَزاهَتِه.. وأمانَتِه... وصلابَتِه في الحقّ.. فقد رفّعه الوالي إلىٰ مَنْصِبِ (قاضي القضاة) ، أي إلىٰ رئيس للقضاة ، بحيث يتولّىٰ أمورهم ، ويُشرفُ علىٰ أعمالِهِم ، ويحاسِبُهم إذا قَصَّروا... ويَعْزلُهُم إذا خالفوا...

أما إذا عُدنا إلىٰ هُوِيَّتِه الشخصيةِ فإننا نُلَخّصُها بما يلي :

هو عبدُ الله بنُ عمر ، وُلِدَ بالبيضاء ، وهي من

بلاد فارس ، قريبة من شيراز ، إذاً : هو فارسيّ مسلمٌ ، تعلّم العربيةَ وعلومَ الشريعةِ ، وتَمَذْهَبَ بالمَذْهَبِ الشافعي .

كانت بداياتُ أمورِه العلميةِ أن تَفَقَّه علىٰ يدِ والدِهِ (العلامة عمر) ، ثم رحل إلىٰ سائرِ بلادِ فارس ، وذلك بهَدَفِ طَلَبِ العلمِ... ، وأكْثَر مَنْ أَخَذَ عنهم العلومَ (الشيخُ محمد الكتحتائي) .

وعُرِفَ عنه الزهدُ والوَرَعُ ، والاجتهادُ في طَلَبِ العلمِ و... حتىٰ وَصَفَه (الحافظ ابنُ كثير)... بقوله : (هو القاضي الإمامُ العلامة ، ناصِرُ الدين ، عبدُ الله بن عمر ، الشيرازي ، قاضيها وعالمُها ، وعالمُ أذربيجان وتلك النواحي)...

ولما دخلتْ سنةُ (٦٨٥هـ) شَعَرَ بدنوّ أجلِه... فأوصىٰ أن يُدْفَنَ إلىٰ جوار قبر شيخِه في (تبريز)... وهكذا كان...

فرحمَهُ اللهُ رحمةً واسعةً.. وأَسْكَنه فَسيحَ جِنانِه... ونفعَنا بعلومِه .

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *